المقال الثانى

فاشية ، لا مجرد عنصرية *

هكذا قالت لى رئيسة وفد الاتحاد السوفيتى عن الصورة الأيديولوجية لإسرائيل عندما شاءت الأقدار أن أكون رئيساً لوفد اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا ، التابعة للأمم المتحدة (والمعروفة اختصار بحروفها اسكوا) ، وكان ذلك فى المؤتمر العالمى لعقد الأمم المتحدة للمرأة فى كوبنهاجن عام ١٩٨٠ . وكانت قاعات المؤتمر إذ ذاك تردد أصداء ذلك الخلاف المحتدم بين دول عدم الانحياز ، وما عرف بدول الكتلة الاشتراكية إذ ذاك من طرف ، وبين الولايات المتحدة ودول أوربا الغربية من الطرف الآخر .

ومن المصادفات الطيبة أن رئيس وفد الكويت حينئذ كان يقود حملة الدول العربية بالتعاون مع رئيسة وفد منظمة التحرير الفلسطينية فى حث الوفود المشاركة على تبنى القرار الخاص بالصهيونية ، ومساواتها بالعنصرية

(*) مقال نشر أواخر عام ١٩٩١ بمناسبة قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة عام ١٩٩١ بإلغاء قراراتها السابقة بمساواة الصهيونية بالعنصرية .

والتمييز العنصرى حسب قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٣٧٩ لسنة ١٩٧٥ . والمساواة بين الصهيونية والعنصرية تجىء فى ديباجة قرارات المؤتمر على أنها من بين مختلف المعوقات لتحرير المرأة وتطوير أوضاعها ، ومقترنة بمعوقات أخرى، هى: الاستعمار، والاستعمار الجديد، والإمبريالية، باعتبارها أطراً سياسية وأيديولوجية تعمل على استغلال الإنسان ، رجلاً كان أم امرأة ، وتحول دون إطلاق طاقاته وتوفير مقومات العمل المنتج والمجزى فى مسيرة التنمية المستقلة . ولقد تميز رئيس وفد الكويت بنشاط دافق فى حواراته مع رؤساء / رئيسات الوفود فى كواليس المؤتمر ، بل كان يذكِّر بعضها ـ عرضاً وقصداً ـ بما تقدم الدول العربية الخليجية من عون لوفود بعض الأقطار المترددة من دول العالم الثالث .

ومن تقلب الأيام أيضا أن الذى عرض الاقتراح للتصويت بالنداء الجهرى ـ وليس بالاقتراح السرى ـ رئيس وفد السنغال الذى وافقت على اختياره مجموعة دول عدم الانحياز، بما فيها الدول العربية والإسلامية . وقد تصدى لتقديم الاقتراح وشرح مبرراته باقتدار وبلغة فرنسية بليغة . وجاء التصويت ـ بأغلبية أكثر من ثلثى الأعضاء ـ بالإبقاء على نص مساواة الصهيونية بالعنصرية ، وبنفس الصياغة التى اعتمدها المؤتمر العالمى الأولى للمرأة فى المكسيك عام ١٩٧٥ . وقد تم ذلك وسط مظاهر الابتهاج بين الدول المؤيدة للقرار ، فى الوقت الذى كانت رئيسة وفد الولايات المتحدة (الذى تجاوز عدده ٤٠ مشاركاً) تهدد المؤتمر فى

تعليقها على القرار بأن دولتها سوف تقلص مساعداتها لبرامج المرأة التى تقوم بها المنظمة الدولية . وفى خارج أسوار المؤتمر كانت طائفة من صهاينة الدانيمارك تتظاهر ، مطالبة بتسليمها بعض أعضاء الوفد الفلسطينى لمحاكمتهم على أنهم إرهابيون .

ومما ينبغى تسجيله بالاعتزاز أن وفد مصر ، وقد كان فى مرحلة أبشع صور المقاطعة من الدول العربية الأخرى ـ بعد زيارة السادات للقدس ـ وإبرام معاهدة الصلح مع إسرائيل ـ قد صوت ، برئاسة الدكتورة عائشة راتب سفيرة مصر فى الدانيمارك إذ ذاك ـ إلى جانب قرار المساواة بين الصهيونية والعنصرية . وتجلى الضمير المصرى ومسئوليته فى القضية الفلسطينية فى مواجهة السيدة الفاضلة ميرفت التلاوى ـ سفيرتنا الحالية فى اليابان ـ لمزاعم رئيسة الوفد الإسرائيلى فى إحدى اللجان . فقد ادعت الإسرائيلية أن النساء فى الأرض المحتلة فى أحسن حال : تعليما وصحة وتوفراً للأجهزة الإلكترونية فى بيوتهن ، ومن ثم فإن مستوى معيشتهن أفضل من مستوى معيشة معظم النساء العرب فى الدول العربية . وفى دبلوماسية رزينة ومنطق مفحم ، جاء رد السيدة المصرية العربية لتقول : إذا سلمنا بأن الاحتلال يؤدى إلى رفع مستوى معيشة المرأة وتحريرها من الاستغلال ، فلنطالب نساء العالم بالمناداة بأن حى على الاحتلال ، وإذا كانت الاحتياجات المادية والأجهزة الكهربائية هى أقصى ما تطلبه المرأة ، فعلينا أن نمحو الحرية وتقرير المصير من وثائق الأمم المتحدة .

وفى المؤتمر العالمى الثالث لتقييم عقد الأمم المتحدة المرأة تحت شعار

المساواة والتنمية والسلام ، والمنعقد فى نيروبى ١٩٨٤ ، برزت من جديد مسألة مساواة الصهيونية بالعنصرية . . لكن هذه المرة كان وفد الولايات المتحدة الأمريكية مصمماً على عدم إيرادها فى التقرير الختامى للمؤتمر، مهما كلف ذلك، وكان هذا واضحاً من أول يوم من أيام المؤتمر ، بل وكان ذلك معروفاً حتى قبل انعقاد المؤتمر بشهور ... فقد قامت باتصالات واسعة ومكثفة ومهددة بأن نجاح المؤتمر أو فشله إنما يعتمد على هذه المسألة، وأن غيرها من المسائل لا يعنيها كثيرا .

وقد تكهرب جو المؤتمر طيلة مدة انعقاده ، وكان من الممكن أن تظل الديباجة كما كانت فى مؤتمرى المكسيك وكوبنهاجن ، لكن تكتل الدول الأوربية وإعلانها بأنها سوف تنسحب من المؤتمر ، وبأنها لن توافق على أى تقرير يتضمن مساواة الصهيونية بالعنصرية، جاء ترديداً للموقف الأمريكى . واستمر الوفد الأمريكى فى تهديداته بالانسحاب وإفشال المؤتمر حتى آخر ساعاته . ومن الحق أن يقال إن وفود الدول العربية كلها ـ رغم ما كان بين بعضها من قطيعة ـ كانت متفقة على مساندة ما يتخذه وفد منظمة التحرير الفلسطينية من قرار . واشتد الضغط على الوفد الفلسطينى ، وحملوه مسئولية إفشال المؤتمر ، وبخاصة مؤتمراً ينعقد فى إحدى الدول الأفريقية .

ويشتدا الهرج والمرج ، وتتزايد الحركة بعد أن وافق المؤتمر على كل مقرراته وعلى تقريره الختامى ، ولم يبق إلا تلك الفقرة ، والساعة الخامسة صباحاً، والمؤتمر ما يزال منعقداً . وأخيراً لم يجد وفد فلسطين مخرجاً إلا أن

يقبل بصياغة(وغير ذلك من صور الاستغلال) وأكد الدكتور الطرزى أن الوفود العربية ووفد فلسطين ما تزال ترى فى الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية ، لكنه رغبة منه فى نجاح المؤتمر، فإنه قبل بالصورة المقترحة ... وصفق المؤتمر قياماً لهذا الموقف ، شاكرين للمنظمة تفهمها ومرونتها وسداد رأيها، كما عبر عن ذلك عدد من الوفود ، وكانت الساعة السابعة صباحاً، وانفض المؤتمر على هذا النحو .

أسوق تلك المشاهد من أحداث الأمم المتحدة ، لأقول: ماذا جرى حتى تمتنع سبع دول عربية عن التصويت ضد إلغاء قرار مساواة الصهيونية بالعنصرية فى اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة؟. دلونا على بادرة واحدة ـ أو حتى نصف بادرة ـ قامت بها إسرائيل ، لكى توفر مناخاً ملائما لمسيرة مفاوضات السلام ، بل العكس صحيح على طول الخط . ودلونا على موقف إيجابى نحو تحقيق السلام الشامل والعادل من قبل الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من عبارات تقليدية نسمعها منذ أكثر من عشرين عاماً من أن إقامة المستوطنات تمثل عقبة فى طريق السلام ، أو أنها تدعو إسرائيل إلى ضبط النفس ؟ ولم نسمع أنها نددت بأى عمل من الأعمال العدوانية لإسرائيل ،بل كانت دائما تمارس حق الفيتو ضد أى إدانة لإسرائيل ، مبررة ذلك بأن قرارات مُجلس الأمن غير متوازنة . دلونا على جريمة من الجرائم الفاشية لم ترتكبها إسرائيل فى حق الشعب الفلسطينى ، وكذلك السورى واللبنانى ، إذا نسينا بحر البقر؟ وها هى الولايات المتحدة تعبىء دول العالم لإلغاء قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة بمساواة الصهيونية بالعنصرية بعد أن مضى على

هذا القرار ما يزيد عن ١٦ سنة . وحين نتحدث عن عنصرية إسرائيل، إنما نعنى بذلك معاملتها للعرب الفلسطينين فى الأرض المحتلة ، بل وللعرب فى دولة إسرائيل ذاتها ، وهى معاملة لا تخضع لأى اعتبارات إنسانية أو قوانين دولية . لم تتغير صور البشاعة والظلم والاضطهاد والتقتيل والطرد والسجن لعرب فلسطين منذ الاحتلال ، بل إنها لتزداد بشاعة يوماً بعد يوم ، وحتى مع بداية ما يسمى بمفاوضات السلام . . ماذا تغير حتى تضغط الولايات المتحدة على المجتمع الدولى لإلغاء قراره الذى أصدره عام ١٩٧٥؟ إن المسألة ليست مجرد عنصرية الصهيونية فحسب ، وإنما احتلالها ومعاملتها الفاشية للشعب الفلسطينى، ومعه سكان الأراضى المحتلة فى الجولان ولبنان والأردن .

لكن الداهية الدهياء فى مأساة تعديل قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، هو ما حدث من انقسام الصف فى تصويت الدول العربية كما هو معروف ... إلغاء القرار ليس هو انتصار لإسرائيل ، وإنما انتصارها الحقيقى فى تحقيق استمرار التشرذم العربى، فذلك ضمان لفرض استمرار احتلالها، وفرض سيطرتها على المنطقة العربية سياسة واقتصاداً وتأديبا وحراسة . لن يتحقق تحرير الأرض وإقرار السلام العادل والشامل الذى نأمله إلا بأبسط المطالب، المتمثل فى وحدة الموقف العربى .